

هو العليم

رسالة المودعة

تفسيرية:

﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾

والقربان الأول: حضرة الزهراء وابنها الحسن سلام الله عليهما

المجلس الثالث

خلاصة محاضرة يوم الجمعة ٢ جمادى الأولى

سنة ١٣٩١ هجرية قمرية

من مؤلفات العلامة الراحل

آية الله الحاج السيد محمد الحسين الطهراني قدس الله نفسه الزكية

محتويات المجلس الثالث:

- ١ معاني المودّة الواردة في الآية والتأمل فيها
- ٨ استنزاج المودّة للاتباع والاقْتداء
- ١١ دلالة الأحاديث الروايات الواردة في المقام
- ١٣ طرف من مصائب سيّد الشهداء عليه السلام

المجلس الثالث:

مبحث المودة الزوجية

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾

(الآية الثالثة والعشرون من سورة الشورى: السورة الثانية والأربعون من القرآن الكريم)

أجمع المفسّرون من الخاصّة تبعاً للروايات الواردة من طرقنا على أنّ المقصود من المودة في القربى مودة أهل بيت النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم. إلّا أنّ القربى فسّرت بمعاني مختلفة في تفاسير أهل السنّة. ونحن لأجل إدراك حقيقة الأمر سنذكر المعاني التي ذكروها لهذه اللفظة والردّ عليه.

معاني المودة الواردة في الآية والتأمل فيها

المعنى الأول: وهو الذي نسب إلى جمهور من مفسّري أهل السنّة أنّ الخطاب لقريش والأجر الذي قد وقع فيمورد السؤال هو مودّتهم للنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم لقربته منهم؛ وذلك لأنهم كانوا يكذبونه ويبغضونه لتعرّضه لآهتهم، فأمر صلّى الله عليه وآله وسلّم أن

يسألهم: إن لم تؤمنوا بي فودّوني واتركوا البغض والعداء جانباً - كحدّ أقل - لقرابتي منكم، فـ «القربى» هنا مصدر بمعنى القرابة، ولفظة (في) استعملت بمعنى السببية.

وقد ذكر هذا المعنى الفخر الرازي في تفسيره في ذيل الآية الشريفة ونسبه إلى ابن عبّاس نقلاً عن الشعبي^(١). ونسبه في مجمع البيان إلى ابن عبّاس وقتادة ومجاهد وجماعة غيرهم^(٢). وعليه يكون المعنى: إن لم تؤمنوا بي ولم تودّوني لأجل النبوة فودّوني لأجل القرابة التي بيني وبينكم.

يقول في لسان العرب: والقرابة والقربى: الدنوُّ في النسب والقربى في الرحم إلى أن قال: وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ أي: إلا أن تودّوني في قرابتي منكم.^(٣)

ويرجّح هذا المعنى كلٌّ من الأكوسي في تفسير (روح المعاني) والشيخ إسماعيل حقّي في (تفسير روح البيان).^(٤) و^(٥) ولكنّ تفسير الكشّاف يذكر هذا المعنى معبراً عنه بقوله: (قيل)، أي: إنّه احتمال ضعيف وأحد من الأقوال الواردة.^(٦)

ولكنّ هذا المعنى غير صحيح كما بيّن ذلك العلامة الطباطبائي في تفسيره «الميزان» قائلاً:

إنّ معنى الأجر إنّما يتمّ إذا قوبل به عملٌ يمتلكه معطي الأجر، فيعطي العامل ما يعادل ما امتلكه من مالٍ ونحوه، فسؤال الأجر من قريش وهم كانوا مكذّبين له كافرين بدعوته إنّما كان يصحّ على تقدير إيمانهم به صلّى الله عليه وآله وسلم؛ لأنّهم على تقدير تكذيبه والكفر بدعوته لم يأخذوا منه شيئاً حتّى يقابلوه بالأجر، وعلى تقدير الإيمان به و - النبوة أحد الأصول الثلاثة في الدين - لا يتصور بغض حتّى تجعل المودة أجراً للرسالة^(٧).

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٢٧، ص ١٦٤

(٢) مجمع البيان طبع صيدا، ج ٥، ص ٢٨

(٣) يقول في أقرب الموارد: "القربة: القرب، قيل: القرب في المكان، والقربى في الرحم، والقربة في المنزلة، والأصل واحد."

(٤)-(٥) روح المعاني ج ٢٥، ص ٣١، وروح البيان طبع المطبعة العثمانية، ج ٨، ص ٣١١.

(٦) تفسير الكشّاف طبعة دار الكتاب العربي، ج ٤، ص ٢٢١

(٧) تفسير الميزان ج ١٨، ص ٤٣

أضف إلى ذلك أن لفظة (في) ظاهرة في الظرفية، مع أنها قد تستعمل في معنى لام التعليل، نحو: «إنَّ امرأة دخلت النار في هرة»، لكن هذا المعنى خلاف الظاهر ومع عدم القرينة القطعية لا يمكن أن نترك حملها على المعنى الأولي الحقيقي وأن نحملها على المعنى الثانوي المجازي. ولذلك أبقى الزمخشري لفظة (في) على معنى الظرفية وفسر الآية بناءً على هذا المعنى، وبين أن المقصود من المودة في القربى هي المودة في حق أقرباء النبي صلى الله عليه وآله.

كما أن المرحوم السيد عبد الحسين شرف الدين العاملي في كتابه «الفصول المهمة» ردّ هذا المعنى من الآية الشريفة بخمسة أدلة. إلّا أنه ليس الغرض الآن نظر إلى الأخبار أو أن نتجاوز متن الآية، ولذا سنكتفي بهذا الوجه الذي ذكرناه.

المعنى الثاني: أن الخطاب لأنصار المدينة، والمراد من القربى نفس المعنى الأول، يعني: يا أنصار المدينة الذين آمنتم، أنا لا أريد مقابلاً للرسالة إلّا أن تودوني وذلك تبعاً للقربة والارتباط فيما بيننا. وبناءً على نقل الألويسي في «روح المعاني» من بعض التواريخ أن النبي كان له قرابة من جهة سلمى بنت زيد النجارية أم عبد المطلب ومن جهة أخوال أمه أمينة الذين كانوا من أنصار المدينة.^(١)

وهذا المعنى أيضاً غير تام؛ لأنه أولاً: لا مجال للشك والشبهة في محبة ومودة أنصار المدينة للنبي، ولا داعي لأن يدعوهم النبي لمودته، فالأنصار في بادئ الأمر ومع كامل العشق والمحبة للنبي قاموا بدعوتهم من مكة للمدينة ثم قاموا باستضافته على أتم وجه. كذلك أووالمهاجرين في منازلهم ولم يتوانوا عن تقديم أي نوع من الإحسان المالي والنفسي لهم، بل قدموهم على أنفسهم إلى الحد الذي مدحهم الله في سورة الحشر: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾^(٢).

والأنصار هم الذين آمنوا واختاروا السكن في منزل الإيمان قبل أنياتي مهاجروا مكة إليهم، وهم الذين أظهروا المحبة والارتباط مع الأفراد الذين هاجروا إليهم، ولم يتوانوا في الأموال

(١) تفسير روح المعاني ج ٢٥، ص ٣٠.

(٢) الآية ٩، من السورة ٥٩، الحشر.

والأرزاق التي أعطاها المهاجرون إياهم، ومع الفقر والحاجة، قدموا المهاجرين أيضاً على أنفسهم في تمام شؤون المعيشة.

فينبغي التأمل بأنه عندما تكون محبتهم لمؤمني مكة إلى هذا الحد، فما حدود محبتهم للرسول إذا؟! وفي هذه الحالة ما معنى أن يقوم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بالتوسل إلى مودتهم بقرابته منهم هذه القرابة البعيدة وأن يدعوهم لمحبتته في ظل وجود المحبة والمودة الوطيدة معه؟!!

وثانياً: أن العرب لم يكونوا يرون وجوب احترام القرابة من جهة الأم والمراة، حتى يأتي النبي ويعرف نفسه لقومه وأهله على موجب ذلك. على أن العرب قبل الإسلام كما أفاد العلامة الطباطبائي - ما كانت تعني بالقرابة من جهة النساء ذاك الاعتناء، وإنما أدخل الإسلام النساء في القرابة وسأوى بين أولاد البنين وأولاد البنات.^(١)

المعنى الثالث: أن الخطاب لقريش ولأقرباء النبي، والمودة في القربى هي المودة بسبب القرابة الرحيمية، غير أن المراد بها مودة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا مودة قريش، وعليه يكون الاستثناء منقطعاً. ومحصل المعنى يصبح هكذا: إنني لا أسألكم أجراً على ما أدعوكم إليه من الهدى الذي ينتهي بكم إلى روضات الجنات والخلود فيها ولا أطلب منكم جزاء، لكن حبي لكم بسبب قرابتكم مني دفعني إلى أن أهديكم إليه وأدلكم عليه.

وهذا المعنى أيضاً غير سديد أيضاً؛ إذ بالرجوع إلى الآيات القرآنية ولسيرة الرسول الأكرم نجد أولاً: أن الدافع لدعوة الرسول كان أمر الله فقط، ولم يكن عند الرسول إرادة في مقابل إرادة الله سبحانه، ولم يحصل أي حبا أو بغض شخصي يكون باعثاً وموجباً للدعوة. بلورد ذلك في كثير من الآيات نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾.^(٢) وقوله تعالى: ﴿طه* مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى* إِلَّا تَذَكُّرٌ لِمَنْ يَخْشَى﴾^(٣). وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ* لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَعَلَّ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.^(٢)

(١) تفسير "الميزان"، ج ١٨، ص ٤٤.

(٢) ذيل الآية ٤٠، من السورة ١٣: الرعد.

(٣) الآيات ١ إلى ٣ من السورة ٢٠: طه.

وثانياً: لقد كانت دعوة النبيّ عامّة ومحبّته للناس محبّة إلهيّة، ولقد كانت قريش وغيرها عند النبيّ سواء. مضافاً إلى أنّ (إلا) ظاهرة في الاستثناء، ومن المؤكّد أنّ حملها على معنى (بل) الإضرائيّة خلاف للظاهر، ومع عدم القربنة لا يمكن استعمال (إلا) في معنى (بل).

المعنى الرابع: أنّ القربى بمعنى التقرب إلى الله، والمودة في القربى هي التودّد إليه تعالى بالطاعة والتقرب، وعليه يتحصّل هذا المعنى: يا أيّها النبيّ قل: أنا لا أريد منكم أجراً إلاّ أنّ تظهروا لله عزّ وجلّ المحبّة من خلال الأعمال الصالحة وكل عمل يقربكم إليه. وهذا المعنى ينقله الفخر الرازي عن الحسن^(٣).

وهذا المعنى غير تامّ أيضاً؛ وذلك أولاً: لأنّ القربى ظاهرة في معنى القرابة من جهة الرحميّة والنسب، وواضح أنّه لا يوجد لأحد قرب أو قرابة مع الله من هذه الجهة. ومع عدم الدليل لا يمكن استعمال لفظ القربى في مطلق معنى القرب والتقرب.

وثانياً: المودة التي استعملت في الآية غير التودّد؛ لأنّ المودة ظاهرة بمعنى الحبّ والمحبّة، أمّا التودّد فظاهر إمّا بمعنى طلب المحبّة وجلبها، أو بمعنى إظهار المحبّة إذا استعملت مع لفظ (إلى)؛ فيقال: تودّده: طلب مودّته واجتلب وده، ويقال: تودّد إليه: تحبّب إليه وأظهر محبّته له.

ولو صرّحت الآية بالقول «إلاّ التودّد في القربى» لكان فيها وجه لحملها على هذا المعنى، فعلى الوجه الأوّل يتحصّل المعنى التالي: اطلبوا المحبّة من الله بواسطة الأعمال الصالحة التي تتقربون فيها إليه. وعلى أساس الوجه الثاني يكون المعنى: أظهروا المودة والمحبّة بواسطة الأعمال الصالحة التي تتقربون فيها إليه. ولكن في الآية المباركة لم يأت لفظ التودّد، بل الوارد هو لفظة «المودة» بمعنى المحبّة، وفي هذه الحالة لا يكون هناك معنى للقول: أحبوا الله بواسطة الأعمال الصالحة.

وثالثاً: أنّ مادة المودة ليست بمعنى المحبّة، بل أفاد الراغب الأصفهاني نقلاً عن بعض في «المفردات في غريب القرآن»، بأنّ في المودة إشعاراً في المراعاة والتطلّع إلى حال المحبوب

(١) بعض من الآيات ٢١ و ٢٢، من السورة ٨٨: الغاشية

(٢) الآية ١٢٩ من السورة ٩: التوبة

(٣) تفسير الفخر الرازي ج ٢٧، ص ١٦٥

والعناية به. ولذا نُسب هذا المعنى في القرآن المجيد إلى الله تعالى، كما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾^(٢). لأنه يصحّ أن يقال: إن الله يعتني بأحوال عباده ولأجل مراعاة أحوالهم يتطلّع إليهم دائماً. ولكن لا يستقيم هذا المعنى من جهة العبد، ولا يمكن أن يقال: إن العبد يتفقد ويتطلّع إلى الله ويحضر قلبه إليه، ولذا لا يجب القول بأن المؤمنين لديهم مودة لله، بل يجب القول بأن لديهم محبة لله.

المعنى الخامس: أن القربى وردت بنفس معنى القرابة النسبية والرحميمة، ولكن لا قرابة الرسول بل قرابة الناس بعضهم لبعض. وبناءً على ذلك يصبح المعنى: أيها النبي قل: بأنني لا أريد منكم جزاءً ولا أجراً أبداً، إلا أن تتوادوا وتتحابوا مع أرحامكم وأقربائكم.

وهذا المعنى غير سديد قطعاً؛ لأن الإسلام قطع أرحام الجاهلية ومنع التودد مع الأقارب غير المسلمين. ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾^(٣).

وعلى هذا الأساس فمن ضروريات الدين أن الولد الكافر لا يرث من الأب المسلم وبالعكس، يعني: أن الكافر لا يرث من المسلمين في كل طبقة من طبقات الإرث. وقد حرّم الإسلام الكفار في سائر الجهات الاجتماعية من هذه الخصائص من النكاح وغيره وإن كان عندهم صلات قرابة مع المسلمين. وعليه كيف يمكن القول بالمودة بشكل مطلق للأقرباء، مع أن مفاد الجملة الإستثنائية أجزم مقام الرسالة.

وإذا قيل بأن الجملة الإستثنائية مخصصة أو مقيدة بالآية: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ...﴾، فينبغي الإجابة بأن سياق جملة: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ لا يلائم التخصيص؛ لأنه قد بين أجر الرسالة في هذه الجملة وهذا المعنى له أهمية بالغة، وإذا كان هناك تخصيص لعمومه وإطلاقه، للزم أن يُذكر.

(١) ذيل الآية ٩٠، من السورة ١١: هود

(٢) الآية ١٤، من السورة ٨٥: البروج

(٣) قسم من الآية ٣٢ من السورة ٥٨: المجادلة

وثانياً: أن سياق الآية: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾ ناظر إلى التنويه بالمؤمنين الذين مع إيمانهم بالله واليوم الآخر لم يقع حبّ الكفّار في قلوبهم، وإلى أن الإيمان قد كتب في قلوبهم وأنهم سيخلدون في روضات الجنان. فإنّ هذا السياق والخطاب غير ناظر إلى جهة التخصيص في آية المودة في القربى.

والحاصل: مع أن الإسلام أكد على أهميّة الرحم والقربة، لكنّ ذلك كان بعنوان صلة الرحم وإيتاء المال لذوي القربى ونظائر ذلك، لا بعنوان مطلق المحبّة، بل المحبّة إليهم في ضوء المحبة لله ممدوحة، أي: في حالة كونهم مؤمنين.

لقد أورد هذه المعاني التي ذكرت في تفسير هذه الآية جمع من علماء أهل السنّة. وبالإضافة إلى ما ذكر من جواب يمكن القول بأنّه لا دليل على شيء من هذه المعاني لديها دليل، يعني: لنفرض أن الآية حُملت على معنى مع إمكان حملها أيضاً على معنى غيره، فعليه لا يمكن الجزم بتفسيرها بمعنى معيّن من دون دليل، لا سيّما في مثل هذا الآية التي تتناول الأجر المقابل للرسالة، ويمكن بلحاظ الأهميّة القول بأنّها من أهم آيات القرآن، وذلك لأنّ كلّ واحد يفهم هذه الآية ويعمل على طبقها يكون قد أعطى أجر الرسالة، والذي لا يفهمها ولا يعمل على طبقها لا يكون قد أعطى أجراً ولا جزءاً أعلى الرسالة. بناءً على ذلك إنّ الذي يقوم بتفسير هكذا آية بدون دليل ولا شاهد، بل على طبق رأيه وذوقه يحتاج بذلك إلى الكثير من الجرأة، لأنّها إنّما يتجرأ على ربّه.

وأما بالنظر إلى العديد من الروايات الواردة من طرق أهل السنّة والأخبار المستفيضة الواردة من طرق الشيعة في تفسير الآية، فبالإضافة إلى الروايات المتواترة عن طريق الشيعة والسنّة في الحثّ على موالاة أهل البيت عليهم السلام ومحبتهم، يتّضح معنى الآية على أساسها بأنّه: يا أيّها النبي قل: أنا لا أطلب منكم أجراً إلا موالاة أهل بيتي.

وبتبيّن حقيقة هذا المطلب وسرهمن خلال الروايات المتواترة عن طريق الشيعة والسنّة في ضرورة إرجاع الناس إلى أهل البيت عليهم السلام في فهم القرآن المجيد وأصول معارف الدين وفروعه وفي بيان حقائق كتاب الله وفي لزوم التمسك بهم. وعليه لا ينبغي الشك لدى الشخص المُنصف في: إنّ المراد بالمودة في القربى عين موالاة أهل البيت عليهم السلام التي جعلت

كأجر وجزاء على الرسالة فتكون وسيلة في إرجاع الناس إلى تلك الذوات المقدسة في كشف الحقائق العلميّة ورفع المصائب الاجتماعيّة ولزوم الاعتماد على تلك الذوات الطاهرة في جلب المنافع والخيرات ورفع المشاكل .

فأيّ شخص مُنصف يتأمّل في الروايات الصحيحة المتواترة عن طريق الشيعة والسنة التي نقلت عن رسول الله كحديث السفينة: «مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي كَمَثَلِ سَفِينَةِ نُوحٍ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ»^(١). وحديث الثقلين: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ وَعِترَتِي أَهْلَ بَيْتِي وَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرَقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ»^(٢). وقوله (صلى الله عليه وآله): «أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلَيٌّ بَابُهَا فَمَنْ أَرَادَ الْمَدِينَةَ فَلْيَأْتِهَا مِنْ بَابِهَا»^(٣) ويلاحظ الكثير من الروايات الواردة في وجوب محبتهم، لا يتردد في أنّ وجوب المودة والأجر للرسالة يكون في إرجاع الأمة إليهم وفي كسب الفضائل المعنويّة منهم والافتداء بسيرتهم وطريقتهم في جميع مراحل الحياة: الجسميّة والروحيّة، الماديّة والمعنويّة، الظاهريّة والباطنيّة، الدنيويّة والأخرويّة!؟

استلزام المودة للتباعد والافتداء

ولأنّ مودة أهل البيت تستلزم أتباعهم والافتداء بسنتهم وأدابهم وتستلزم أيضاً التعرّف على علومهم وكشف حقائق القرآن ومراتب التوحيد، لذا تصبح هذه المودة بمنزلة بقاء للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ودوام وجوده المقدّس و بمنزلة سلسلة العلل الحافظة للإسلام وأثراً من آثار النتائج الحاصلة من جهوده صلى الله عليه وآله وسلم التي تجسّمها، وعليه تكون حقاً أجراً وجزءاً أعلى الرسالة؛ لأنّه بناءً على البيان السابق من أنّ الداعي من الرسالة هو وصول أفراد

(١) ينقل هذا الحديث الفخر الرازي في تفسيره في ذيل آية مودة القربى، في الجزء ٢٧، ص ١٦٧

(٢) ينقل هذا الحديث أحمد ابن حنبل بطريقتين صحيحين عن زيد بن ثابت: الأول في أوّل ص ١٨٢، والثاني في آخر ص ١٨٩ من مسنده في هذه الصورة: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ وَأَهْلَ بَيْتِي وَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرَقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ. يقول في تفسير الدر المنثور طبع دار المعرفة، ج ٦، ص ٧: وأخرج الترمذيّ وحسنه ابن الأنباري في المصاحف عن زيد بن أرقم رضي الله عنع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا غَنَ تَمَسَّكُمْ بِهِ لَنْ تَضَلُّوا بَعْدِي، أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الْآخَرِ: كِتَابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ وَعِترَتِي أَهْلُ بَيْتِي، وَلَنْ يَفْتَرَقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ فَانظُرُوا كَيْفَ تَخْلَفُونِي فِيهِمَا.

ويذكر الحديث في غاية المرام ص ٢١١ بعد ٣٩ طرق عن العامة و٨٢ طريق عن الخاصة.

() ولقد بُحِثَ هذا الحديث بشكل مستوفي من ناحية سنده ودلالته في الجزء الثالث عشر من كتاب معرفة الإمام.

(٣) لقد بُحِثَ في هذا الحديث وفي أسانيده المتقنة في كتاب معرفة الإمام الجزء ١١، ص ٥١ إلى ص ١٣٣، وفي كتاب الغدير ج ٦، ص ٦١.

البشر إلى مراتب الإنسانيّة وعروجهم من سطح البهيميّة إلى مستوى البشريّة والوصول إلى الأهداف الإنسانيّة الرفيعة والخروج من كلّ أنواع الشرك ثمّ الوصول إلى سلسلة مراتب التوحيد، فإذا سار أحد كذلك فإنّه حقّاً سيكون قد دفع أجر الرسالة. وهذا السير لن يحدث بدون الارتباط والمودة بأهل البيت الذي له حكم بقاء وجود نفس رسول الله ودرجة نفسه النفيسة.

مع أنّه لم يرتب أحد من المسلمين في أنّ أهل البيت هم الحامل الوحيد لعلوم الرسول الأكرم، وهذا المعنى موضع تصديق أيضاً بين علماء العامّة، كما أنّ المسلمين الأوائل كانوا يعلمون بأنّ أهل البيت حاملوا أسرار القرآن والعلوم النبويّة وأنّهم حلّالوا المشاكل العلميّة والعملية.

لذا فالمودة لأهل البيت والتأسيّ بهم استمرار للمودة برسول الله والتأسيّ به صلّى الله عليه وآله، وستحيا نفس رسول الله القدسيّة بعد ارتحاله في حياة أهل البيت، وهذه هي العلة لعدم انفكاك القرآن عن العترة إلى قيام الساعة والورود إلى جانب حوض الكوثر، فكأنّ نفس النبي التي هي نفس وروح القرآن ستحيا وتخلّد مع كتابه الذي هو كتاب الله إلى يوم القيامة، نظير المعنى والصورة الحافظ لعالم البشريّة والهادي للبشريّة إلى مقام الكمال والسعادة.

ولا ننسى أن نذكّر بأنّ بعضهم قد توهم أنّ تفسير آية المودة في القربى بأهل البيت فيها تنافٍ مع شأن النبي؛ لأنّه يقرّ بوجود أفضليّة لأرحامه وأقربائه الخواصّ في مقابل الرسالة ويكون قد جرّ المنفعة إلى خلفائه من أهل البيت. ويشهد له التنافي مع الآيات القرآنيّة التي دلّت أولاً على أنّ تمام الأنبياء ما أرادوا شيئاً من الأجر والجزاء من أممهم، وأنّ قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾^(١) يفيد أنّ النبيّ لم يطلب الأجر والجزاء.

وفيه نظرٌ من عدّة جهات:

الأول: أنّه بحسب الدليل الذي ذكرناه سابقاً يلاحظ أنّ المودة في القربى هي نفس الوصول إلى الله سبحانه، كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾^(٢).

(١) جزء من الآية ٩٠، من السورة ٦: الأنعام

(٢) الآية ٥٧، من السورة ٢٥: الفرقان

والوصول إلى الله عين مودة ومحبة أهل البيت عليهم السلام كما أنه منحصر في محبتهم، ولم يتعلّق بنفس النبي، بل تعلّقت منافعه بالناس والأمة.

وعليه فما ذكر من أن الأجر والجزاء في الحقيقة مفاده عود المنفعة والفائدة بطرف الإنسان في إزاء العمل الذي قد قام به ليس متحقّقاً هنا، والإستثناء منقطع، وهذا المعنى توضّحه الآية المباركة: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾. أي: قل يا أيها النبي بأنّ الأجر الذي سألتكم عنه يكون لكم، وعليه ففائدة مودة ذوي القربى ستعود عليكم أنفسكم وأجري ومجازاتي فقط على الله سبحانه.

الثاني: أنه على أساس هذا المعنى فالمخاطب في هذه الآية هم المسلمون والآية مدنيّة. فكيف يمكن للمسلمين أن يحدثوا أو هاماً من هذا القبيل بعد إيمانهم بالرسول الأكرم وتصديقهم بعصمته ومشاهدتهم جميع مراتب عظمة وسعة الروح وعلو المقام؟!

فإذا كان هذا المعنى مخالفاً لمرتبة النبوة مع سخافة هذه الاتهامات فلا يجب الحكم والتصديقه. ومع أنه لو قيل به للزم القول بمنافاة سائر الامتيازات للرسول الأكرم التي دلت الآيات القرآنيّة عليها من قبيل وجوب الإطاعة المطلقة والتسليم المحض في قبال أوامره، وكاختصاص الأنفال والغنائم به واختصاص الخمس بذوي القربى، وإختصاصه بالأمر الذي أبيع له في مسألة النساء، وستكون هذه الأحكام مخالفة للواقع ومنافية لشأن الرسول صلّى الله عليه وآله، مع أنه لا قائل بذلك.

الثالث: أنه لنفرض أننا صرفنا النظر عن معنى الآية ولم نفسّر قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ على وجوب المودة لأهل البيت (دفعاً لهذا الاتهام)، لكن ما محلّ الأخبار المتواترة الخارجة عن العدّ والإحصاء من طرق السنّة والشريعة الصريحة في وجوب المودة لأهل البيت عليهم السلام؟

فإذا التزمنا بأنّ وجوب المودة لأهل البيت يكون منافياً لشأن الرسالة فما الفرق بين أن تدلّ آية قرآنيّة على ذلك، أو إخبار الرسول من غير طريق القرآن؛ لأنه بناءً على الفرض فإنّ نفس

الدعوة إلى أهل البيت وإلزام الأمة بوجوب مودّتهم مستلزمة للمحذور، لا خصوص دلالة القرآن؟!

والحاصل فإنّ قرب أهل بيت الرسالة من النبي الأكرم لا يقتصر على القرب المادي والجسمي، بل يتعداه إلى القرب الروحي والحقيقي به. وظاهر هذه العلة يقتضي أنّهم كانوا من جميع الجهات نفس النبي وأثره الظاهر في المراتب العلميّة والأخلاقيّة والمعنويّة، فالرجوع إليهم في حكم الرجوع إلى نفس رسول الله وإلى أجر الرسالة.

دلالة الأحاديث الروايات الواردة في المقام

يروى الكلبي عن ابن عباس أنّه قال: إنّ النبيّ صلى الله عليه وسلّم لمّا قدم المدينة كانت تعرفه نواب وحقوق وليس في يده سعة، فقال الأنصار: إنّ هذا الرجل قد هداكم الله على يده وهو ابن أختكم وجاركم في بلدكم، فاجمعوا له طائفة من أموالكم ففعلوا ثمّ أتوه به فردّه عليهم، فنزل قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: على الإيمان إلّا أن تودّوا أقاربي فحثّهم على مودّة أقاربه^(١).

كما قد ورد في تفسير الألويسي أنّه روى ذاذان عن عليّ كرم الله وجهه قال: فينا في آل حم^(٢) آية لا يحفظ مودّتنا إلّا مؤمن. ثمّ قرأ هذه الآية. ثمّ أردف قائلاً: وإلى هذا أشار الكميّ في قوله:

وجدنا لكم في آل حم آية تأولها منّا تقيّ ومُعرب^(٣)

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٢٧، ص ١٦٤

(٢) المقصود من آل حم سلسلة سور حم وعددها سبعة ويُقال لها الحواميم. فقد عبّر سلام الله عليه بآل حم لوقوع آية المودّة في القربي في سورة الشورى التي هي إحدى سور الحواميم.

(٣) تفسير روح المعاني ج ٢٥، ص ٣١، وأيضاً قد ورد في ينابيع المودّة طبعة النجف ص ١٢٤، وفي مجمع البيان ج ٥، ص ٢٩

[وكذلك قد أورد آية الله السيّد شرف الدين العاملي في كتاب الكلمة الغراء ص ٢٢١ هذه الرواية وهذا الشعر]

وفي تفسير مجمع البيان يروي بإسناده المتّصل عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس أنّه قال: لما نزلت ﴿قُلْ لَأَسْأَلَنَّكُمْ عَلَيْهَا أَجْرًا﴾ - الآية، قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين أمرنا الله بمودّتهم؟ قال: علي وفاطمة ووُلدهما.^(١)

وينقل عين هذا الحديث أيضاً في ينابيع المودّة عن مسند أحمد بن حنبل بإسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس.^(٢)

وقال الزمخشري في تفسير الكشّاف: رُوِيَ أَنَّهَا لَمَّا نَزَلَتْ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ قَرَابَتِكَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَجِبَتْ عَلَيْنَا مَوَدَّتُهُمْ؟ قَالَ: عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَابْنَاهُمَا.

ويروي أيضاً في ينابيع المودّة عن صحيح البخاري ومسلم: سأل ابن عبّاس عن هذه الآية، فقال سعيد بن جبير: هي قربي آل محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم.

ويروي في تفسير مجمع البيان بإسناده عن كتاب شواهد التنزيل لقواعد التفصيل مرفوعاً عن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: إنّ الله تعالى خلق الأنبياء من أشجار شتى وخلقت أنا وعلي من شجرة واحدة، فأنا أصلها، وعلي فرعها، وفاطمة لقاحها، والحسن والحسين ثمارها وأشياعنا أوراقها، فمن تعلق بغصن من أغصانها نجاً، ومن زاغ عنها هوى. ولو أنّ عبداً عبد الله بين الصفا والمروة ألف عام ثم ألف عام حتى يصير كالشنّ البالي ثم لم يدرك محبّتنا كبّه الله على منخريه في النار. ثم تلا: ﴿قُلْ لَأَسْأَلَنَّكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(٣).

(١) مجمع البيان طبعة صيدا، ج ٥، ص ٢٨

(٢) (٢) لقد ورد هذا الحديث في ينابيع المودّة طبعة النجف، ص ١٢٣، ولكن بلفظ الحسن والحسين مكان لفظ وُلدهما. ثم يقول: وينقل هذا الحديث كل من الطبراني في المعجم الكبير وابن أبي حاتم في تفسيره والحاكم في المناقب والواحد في البسيط والحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء والثعلبي في تفسيره والحموي في فرأئد السّمطين. وينقل هذا الحديث السيد شرف الدين العاملي في الفصول المهمّة الطبعة الخامسة مطبعة عثمان-النجف، ص ٢١٩، عن ابن عبّاس بسلسلة إسناد ابن منذر وابن مردويه المقرئ والمغوي في تفاسيرهم والسيوطي في الدرّ المنثور والحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء والحموي في فرأئد السّمطين وغيرهم من المحدثين والمفسّرين. وقد ذكر في تفسير الدرّ المنثور لفظ ولدهما مكان لفظ ابناهما.

(٣) مجمع البيان ج ٥، ص ٢٨، ويرويه كذلك السيد شرف الدين في الفصول المهمّة ص ٢٢٠ عن الحاكم في تفسيره، كما قد ورد في مجمع البيان بإسناده عن أبي أمامة الباهلي.

كما أنّ العلامة الأميني في الغدير في الطبعة الرابعة لدار الكتاب العربي، ج ٢، ص ٣٠٨ يروي هذه الرواية باختلاف بسيط، عن الحافظ الطبري وابن عساكر والحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل بطرق عديدة عن أبي أمامة الباهلي، ويقول أيضاً أنّ الكنجي ذكره في الكفاية ص ١٧٨.

طرف من مصائب سيّد الشهداء عليه السلام

وخرَجَ الالكوسي في تفسيره عن ابن جرير عن أبي الديلم قال: لَمَّا جِيءَ بعلي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما أسيراً فأقيم على درج دمشق قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم فقال له علي رضي الله تعالى عنه: أقرأت القرآن؟ قال: نعم قال: أقرأت ألحم؟ قال: نعم قال: ما قرأت ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ قال: فإنكم لأنتم هم؟ قال: نعم^(١).

كما ورد في كتاب إرشاد المفيد: عندما وصل خبر شهادة سيّد الشهداء وأولاده وأصحابه إلى المدينة، خرجت أمّ لقمان بنت عقيل بن أبي طالب رحمة الله عليهم حين سمعت نعي الحسين عليه السلام حاسرةً ومعها أخواتها: أمّ هانئ وأسماء ورملة وزينب، بنات عقيل ابن أبي طالب رحمة الله عليهنّ تبكي قتلاها بالطفّ وهي تقول:

ماذا تقولون إن ^(٢) قال النبي لكم	ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتي وأهلي بعد مفتقدي	منهم أسارى وقتلى ضُرّجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم	أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي ^(٣)

ويقول في التفسير المنسوب لمحيي الدين ابن العربي: قال الرسول الأكرم: علي وفاطمة والحسن والحسين وأبناؤهما.
(١) روح المعاني ج ٥، ص ٣١، وينقل أيضاً هذا الحديث السيد شرف الدين العاملي في الفصول المهمة ص ٢٢١ عن الطبراني وعن الصواعق المحرقة وعن غيرهم.

(٢) إذ- خ ل.

(٣) الإرشاد، الطبعة الحجرية، ص ٢٧٠، ومن الطبعة الثانية لدار المفيد- بيروت، ج ٢، ص ١٢٤.